عالَم السؤال

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها)

من الصفحة ٢٧٧ حتى الصفحة ٣٠٧

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة

وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام

من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم مؤلفات الإمام

- المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

السـؤال

قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

روى الترمذي وغيره، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تُسألون عن: لا إلَه إلا الله»[1].

والمعنى أنهم يُسألون عن لا إلَه إلا الله من حيث الاعتقاد بها، ومن حيث القول، ومن حيث العمل؛ لأن الوفاء بلا إلَه إلا الله يقتضي ذلك كله.

وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾.

وفي هذا الإخبار من الله تعالى المؤكد، عمَّا يُجريه سبحانه من السؤال: تنبيه للعباد أن يَستعدوا للجواب، وذلك أن الله تعالى سوف يَسأل الأمم عن مواقفها مع رسلها، وهل استجابوا لدعوتهم

---

(١) عزاه الحافظ ابن كثير إلى الترمذي، وأبي يعلى الموصلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم.
وعزاه الآلوسي في: (تفسيره) إلى الترمذي ثم قال: وأخرجه البخاري في: (تاريخه) من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه موقوفاً. اهـ.
قلت: والموقوف في مثل هذا حكمه كالمرفوع، لأنه لا مجال للرأي فيه ـ كما هو المقرر في أصول الحديث.

أم لا؟ وهل أطاعوا ما جاءت به الرسل من عند الله تعالى أم لا؟ وكيف كان حالهم مع رسلهم؟

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

فهو سبحانه يسأل عباده يوم القيامة عن التوحيد، والإيمان بالله تعالى، ويسألهم عن الإيمان بنبيِّهم المرسَل إليهم، كما سُئلوا في قبورهم فقيل لأحدهم: مَنْ ربُّك ومن نبيك وما دينك؟

فأما المؤمن فيشهد أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا يأتي الكافر يوم القيامة ولا جواب له حين يُسأل.

ولهذا قال تعالى في الكفار: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي: فعميت عليهم الأخبار والأعذار والحجج، فهم لا يجيبون ولا يحتجّون، ولا يسأل أحدهم الآخر لعله يُلَقِّنه الجواب، بل أُغلِق عليهم كل باب.

قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

والمراد هنا عمىٰ القلب والبصيرة لا عمى العين الباصرة.

وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

والمعنى مَنْ كان في الدنيا أعمى القلب عن رؤية آيات الله وآلائه، وحقائق الإيمان به؛ فهو في الآخرة أشدُّ عمىً وأضل سبيلاً.

روى الطبراني وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما منكم من أحد إلا سيخلو اللهُ به فيقول: يا ابن آدم ما غرَّك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبتَ المرسلين»؟[1].

وهكذا تُسأل العباد عن مواقفها مع رسلهم صلوات الله تعالى عليهم أجمعين.

جاء في: (صحيح) البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وليلقيَنَّ اللهَ أحدكم يومَ يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يُترجم له.

فليقولن سبحانه: ألم أبعثْ إليك رسولاً فبلَّغك؟

فيقول العبد: بلى» الحديث.

أي: فماذا عَمِلْتَ بما جاءك به رسولك صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وهكذا يسأل الله المرسلين: هل بلَّغوا رسالات الله تعالى، وأدَّوا الأمانة ونصحوا الأمة.

ولا شكّ أنّ الرسل قد بلَّغت رسالات ربِّهم، وأدّوا واجبهم على أكمل الوجوه، ونصحوا الأمة أسعد نصح، وأن الله تعالى يعلم ذلك كلَّه، ولا يخفى عليه شيء من ذلك.

---

(١) عزاه في: (الدر المنثور) إلى النسائي، وابن المبارك في: (الزهد) وابن مردويه، وذكره الحافظ ابن كثير في مواضع من: (تفسيره).

ولكن في هذا السؤال والإتيان بالجواب إقامة حجة على المنكرين والمكذبين للمرسلين، وإعلان للملأِ الكبير هناك أنه لا عذر لمعتذر، ولا حجة لمنكر، لأن الرسالات الإلٰهية بلَّغتها الرسل، وأقامت الحجج والبراهين على حقِّيَّتها وصدقها.

ومن ثمَّ لما خطب النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم حجة الوداع، في ذلك الجمع العظيم، والحفل الكبير، نبَّه الناس فقال: «أيُّها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك قد بلَّغتَ، وأدَّيتَ، ونصحتَ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم ورفع إصبعه إلى السماء: «اللهم اشهد اللهم اشهد».

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر في خطبه من قوله: «ألا هل بلّغت، اللهم اشهد»، ولا سيما في خطبته يوم حجة الوداع، صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا العالم ـ أي: عالَم السؤال ـ تشهد الرسل أنهم قد بلَّغوا أممهم، وتشهد هذه الأمة المحمدية على نبينا أفضل الصلاة والسلام للرسل قبلهم بالتبليغ، ويكون الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم شهيداً على أمته المتَّبعة بالعدالة والتزكية.

* * *

موقف شهادة هذه الأمة المحمدية على الناس قبلهم وشهادة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الأمة

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.

وقد جاء في الأحاديث النبوية بيان المراد من هذه الآية الكريمة:

فقد روى البخاري، وأصحاب السنن، والإمام أحمد واللفظ له، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغتَ؟

فيقول: نعم.

فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلَّغكم؟

فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحدٍ.

فيقال لنوح: مَن يشهد لك؟

فيقول: محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته».

قال: «فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ـ قال: والوسط: العدل ـ فتُدعَوْن فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم».

يعني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو يُزكِّي أمته المتَّبعين له، ويعدِّلهم، ويشهد لهم بالثقة والعدالة حتى تُقبل شهادتهم، فلما ادَّعى نوح عليه السلام أنه بلَّغ طولب بالبيِّنة، وهي: الشهود على دعواه، فلما جيء بالشهود قيل لهم: مَن يُزكيكم ويُعدِّلكم؟.

فقالوا: يزكينا ويشهد لنا بالعدالة سيد العالمين، وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى.

وقد استندت شهادة هذه الأمة المتبعة على إخبار رسولها صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه سبحانه؛ الذي أنزل عليه القرآن، وأخبره فيه أن نوحاً وسائر الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم، وهذا الخبر أقوى في الإثبات من رؤية العيان.

وإلى هذا نبَّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يَجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ ـ أي: نبيكم ـ فيقولون: لا.

فيقال له: هل بلَّغْتَ قومك؟ فيقول: نعم.

فيقال: مَن يشهد لك؟

فيقول: محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته.

فيقال لهم: ـ أي: لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم.

فيقال ـ أي: لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ: وما علمكم؟

فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أَنّ الرسل قد بلَّغوا».

فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وإنما كان خبر القرآن الكريم الذي جاء به رسولنا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أقوى من العيان: لأن العيان وحده أحد الدليلين في إثبات الأمور إذا صح نظر المعاينِ ولم يَنقضه البرهان، ولكن إذا تضافر الدليلان: العيان والبرهان على إثبات أمر؛ فليس بعده توقف ولا تِبْيان؛ بل حينذاك لا يختلف فيه اثنان.

ولا ريب أن حَقِّيَّة القرآن وثبوت أنه كلام الله تعالى: ذلك أمر ثابت بالبرهان والعيان، كما أن حقِّية نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصدق رسالته: ذلك ثابت بالبرهان وبالعيان.

أما العيان فهي مُعجزاته الظاهرة في السماوات والأرض، والأحجار والأشجار، والظاهرة في خُلُقه صلى الله عليه وآله وسلم، والظاهرة في خَلْقه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

أما البرهان العقلي فهناك براهين لا تكاد تُحصى، نبَّه إليها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومعنى ذلك أن مَن تعقَّل في أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أيقن أنه حقاً نبي الله ورسول الله، لا يحتمل أمره غير ذلك، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة، ولا استمع إلى عالم أو معلِّم، بل كان يَنعزل عن البشر، وقد رعى الغنم أياماً خالياً بنفسه مع ربه، ثم حُبب إليه الخلاء،

فكان يخلو بغار حراء، وهكذا مضت عليه أربعون سنة لم يأت بآية واحدة، ولم يقرأ عليهم شيئاً من القرآن، ثم بعد ذلك على تمام الأربعين سنة: يأتيهم بهذا القرآن المعجز، ويتلوه على الناس على أسلوب خاصٍّ غير معروف عند قومه، ولا بين كافة الناس، ويأتي بهذا القرآن الجامع لأنواع العلوم التي لا تُحصى، والمخبر عن العوالم التي لا تُستقصى، والمُبيِّن لجميع الأحكام الشرعية المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا وسعادة الآخرة، على أكمل نظام وأبدع إحكام.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية.

فعند ذلك لا ينبغي أن يختلف اثنان بعد البرهان والعيان: الدالين على صدق هذا الرسول الكريم سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

ثم إنَّ ذلك المنصب ـ وهو منصب شهادة هذه الأمة على الأمم قبلها ـ هو منصب عالٍ شريف، خُصَّت به هذه الأمة المحمدية المتبعة لرسولها صلى الله عليه وآله وسلم ـ جعلنا الله تعالى منهم ـ ولهذا يَقف هؤلاء الشهود يوم القيامة في مكان عالٍ مُشرف على الخلائق كلهم.

روى ابن مَرْدُويه، وابن أبي حاتم، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم مشرفين على الخلائق، وما من الناس أحد إلا ودَّ أنَّه مِنَّا، وما

من نبيٍّ كذَّبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلَّغ رسالة ربِّه عزّ وجلّ»[1].

ولما كان هذا المنصب شريفاً مُنيفاً، كان حقيقاً بأن يُدعى به ويُسأل من الله تعالى نيله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: (أيْ فاكتبنا مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته، وهم الشاهدون الذين يشهدون لنبيهم أنه قد بلَّغ، ويشهدون للرسل أنهم قد بلَّغوا)[2].

* * *

(١) انظر: (تفسير) الحافظ ابن كثير عند الآية.

(٢) قال ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصحح إسناده. اهـ.

موقف شهادة الرسل على أممهم

قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

يُخبر الله سبحانه في هذه الآية الكريمة عن هول يوم القيامة وشدة أمره، وكيف الحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد يشهد عليها وهو نبيها المبعوث فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ الآية.

روى البخاري، والترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرأ عليَّ القرآن».

قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟

قال: «نعم، فإني أحبُّ أن أسمعه من غيري».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فقرأت سورة النساء، حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ الآية.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حسبُك الآن» فإذا عيناه صلى الله عليه وآله وسلم تذرفان ـ أي: تدمعان.

فالمشار إليه في قوله تعالى: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ هم أمة

محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ شَهِيدًا ﴾ قال العلامة النَّسَفِي: أي: شاهداً على مَن آمن بالإيمان، وعلى من كفر بالكفر، وعلى مَن نافق بالنفاق. اهـ.

وهكذا الرسل صلوات الله تعالى عليهم يَشهدون لمن آمن بالإيمان، وعلى مَن كفر بالكفر.

وأما قوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾.

فهذه الآية لا تتعارض مع الآيات السابقة، التي تُثبت جواب الرسل حين يسألهم الله تعالى عن أممهم، وتُثبت شهادة الرسل على أممهم، ولدفع التعارض وجوه:

أولاً: إن قوله تعالى للرسل: ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ ـ أي: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى الإيمان؟.

﴿ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ أي: لا علم لنا بإخلاصهم، وما أخفوه في نفوسهم، يدل على ذلك تمام الآية ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ أي: ومن جملة الغيوب ما أضمروه في خفايا القلوب، والمعنى: لا علم لنا كعلمك فيهم، لأنك تعلم ما أضمروه وما أظهروه، ونحن لا نعلم إلا ما أظهروه ـ وأما ما أخفوه في نفوسهم فلا علم لنا بذلك إلا ما علمتنا من ذلك.

ثانياً: قولهم: ﴿ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ أي: لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، فإننا نعلم منهم ما كان من أفعالهم وأقوالهم في حياتنا، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا إلا ما علمتنا، ويكون من هذا ما أخبر الله تعالى به عن عيسى عليه السلام بقوله: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا

مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾.

ثالثاً: إنّ الآخرة فيها مواقف متعددة، فلما سُئلوا في بعض المواقف الأولى سئلوا عن أممهم؛ فأجابوا، واسْتُشْهِدوا فشَهدوا بما علموا منهم، وكان هذا السؤال لكل رسول مع أمته، كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾.

ثم في موقف آخر سُئلوا فلم يجيبوا، بل فوَّضوا علم ذلك إلى الله تعالى، أدباً مع الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، وكان هذا في موقف خاص جُمعت فيه جميع الرسل وحدهم دون أممهم، كما يدل عليه قوله سبحانه ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾[1].

* * *

(١) انظر جميع ذلك في: (تفسير) النسفي، والخازن وغيرهما.

السؤال عن التكـاليف العمليـة

وكما أن العباد يُسألون يوم القيامة عن قضايا الإيمان كما تقدم فهم يُسألون أيضاً عما كُلِّفوا به من الأعمال، وأعظمها الفرائض، وأهمها الصلاة.

جاء عن قَبيصة بن حُرَيث رضي الله عنه قال: قدمتُ المدينة فقلت: اللهم يَسِّرْ لي جليساً صالحاً يُحدثني بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لعلَّ الله تعالى ينفعني به، فجلست إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقلت: إني سألت الله تعالى أن يرزقني جليساً صالحاً.

فقال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أولَ ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحتْ: فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت: فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضته شيئاً قال الربُّ تبارك وتعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوّع ـ أي: نوافل فوق الفرائض ـ فيكمَّل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك» رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

وفي هذا بيان مسؤولية العبد عن الفروض التي فرضها الله تعالى عليه، ويُبدأ بالسؤال عن أهمها وأعظمها وهو الصلاة، ثم سائر

الأعمال التكليفية، وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم أن النوافل تُكمل نقص الفرائض، وتجبر كسرها، وتسد ثغورها، ولذلك ينبغي المواظبة على السنن الصلاتية: القبلية والبعدية ونحوها من التطوعات، ليكمل بها فروضه، ولا يكون من أتى بالنوافل متنفلاً إلا إذا كملت له فرائضه من كل جانب ـ وهؤلاء قليل ما هم.

وأما ما دام صاحب النافلة محتاجاً إليها في تكميل فروضه فلا نافلةَ ـ أي: زيادة ـ عنده، فإنَّ فضلة الثوب ما زادت على الثوب بعد خياطته، وأما إذا كانت القطعة يحتاجها الخياط لتكميل الأكمام أو الظهر أو الجوانب؛ فليست تلك القطعة فضلة، بل هي من تمام الثوب ـ فاعتبر وتبصَّر.

سؤال الإنسان عن أهله وعمَّا استرعاه الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

روى ابن حبان في: (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله سائل كلّ راعٍ عما استرعاه: حَفظ أم ضيَّع؟ حتى يَسأل الرجل عن أهل بيته» ـ أي: هل أدى واجبه الديني نحوهم، وأحسن رعايتهم وعشرتهم أم أساء؟

وفي: (الصحيحين) عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كلُّكم راع ومسؤول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله

ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».

ومن هنا يجب على المرأة أن تعلم أن عليها مسؤولية في رعايتها لبيت زوجها، وفي تربيتها لأولادها، وفي قيامها في خدمة زوجها وَبَيْتها، فلا يجوز لها أن تُقَصِّر، ولا أَنْ تُسْرف في مال زوجها؛ بل ولا تتصدَّق من ماله إلا بإذنه، ولا تَخرج إلا بإذنه، لِما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنَّ المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره: لعنها كل ملك في السماء وكل شيء مرَّت عليه غير الجن والإنس» رواه الطبراني بإسناد الثقات.

السؤال عن السمع والبصر والفؤاد

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

نهى الله الإنسان أن يتَّبع ما ليس له به علم، بأن يتبع الأوهام والظنون مما لا دليل فيه يُثبت العلم.

فمعنى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ أي: لاتتبع ما لم تعلم، فلا تقل رأيتُ وما رأيتَ! ولا تقل سمعتُ والحال أنت ما سمعتَ! ولا تقل علمتُ والحال أَنت لم تَعلم! تبني ذلك كلَّه على توهم وتظنُّن.

كما أنك لا ترم أحداً بما ليس لك به علم: من دليل أو بينة تُثبت ذلك ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

لما نهى سبحانه عن اتباع ما ليس للإنسان به علم من مسموعات ومُبصَرات، أو معلومات، أو تصديقات قلبية ونحو ذلك: بَيَّن أن هناك سؤالاً عن السمع والبصر والفؤاد.

وذلك أَن الإنسان يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده أين صرف ذلك، وإلى أيِّ جهة وَجهها؛ هل تصرَّف بسمعه وفؤاده فيما أحلّ الله تعالى أم فيما حرم الله؟.

فيُقال للإنسان: لِمَ سمعتَ ما لا يحلّ لك سماعه؟ ولِمَ نظرت إلى ما لا يَحلُّ لك النظر إليه؟ ولم عزمت بقلبك على ما لا يحل لك العزم عليه؟ ولم تَعلَّق قلبك بما لا يحل لك شرعاً؟ ولم أحببتَ بقلبك ما كرهه الله تعالى؟ ولم كرهت بقلبك ما يحبه الله تعالى؟ ولمَ أبغضتَ ما يرضاه الله تعالى؟ ولِمَ رضيت بما يُغضب الله تعالى؟

وهكذا يُسأل الإنسان عن جميع تصرفاته وتقلباته: السمعية والبصرية، وعن جميع تأثراته القلبية: بالتصديق والإنكار، بالحب والبغض، والرضىٰ والغضب، والاستحسان والكراهية، والاستكبار والاستصغار، وجميع ما هنالك من أعمال القلوب وتأثراتها، ولذلك جاء ذكر القلب هنا بالفؤاد باعتبار أنه موضع الانفعال والتأثر.

فَلْيَتَّق الإنسان ربَّه في سمعه وبصره وفؤاده، وليعلم أن كل ما يمرّ عليه سمعه وبصره وفؤاده، ويتوجَّه إليه، فهو مسؤول عنه، فإن كان في الخير أُجِر، وإن كان في الشر خَسِر.

روى الترمذي، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتى بالعبد يوم القيامة

فيقول الله تعالى: أَلَمْ أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخَّرتُ لك الأنعام والحرث، وتركتُك ترأس وتربع[1] ـ وفي رواية لصحيح مسلم: «ترتع» ـ أي: تتنعم بالمأكل والمشرب ـ فكنتَ تظن أَنَّكَ ملاقِيَّ يومَك هذا؟ ـ أي: هل كنت تعتقد أنك سوف تلقاني في هذا اليوم يوم القيامة ـ قال: فيقول العبد ـ أي: الكافر ـ: لا.

فيقول الله تعالى له: اليوم أنساكَ كما نسيتني».

أي: اليوم أتركك في العذاب كما تركتَ في الدنيا شريعتي وديني، ولم تُؤمن بلقائي.

وروى أصحاب السنن، عن شَكَل بن حُمَيد رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا نبيَّ الله علِّمني تعويذاً أتعوَّذُ به.

قال: فأخذ بيدي ثم قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري، وشر لساني، وشر قلبي، وشر منيِّي».

قال: فحفظتها.

السؤال عن العمر والعلم والمال والجسم والشباب

روى الإمام الترمذي وغيره، عن أبي بَرزة الأسلمي رضي الله

---

(١) وفي رواية: «تربَّعْ» قال في: «النهاية»: أي: تأخذ ربع الغنيمة، يقال: ربعت القوم أربعهم إذا أخذت ربع أموالهم، مثل عشرتهم، يريد: أَلَمْ أجعلك رئيساً مطاعاً، لأنَّ الملك كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية، ويسمى ذلك الربع: المرباع. اهـ.

عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن: عمره فيمَ أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»؟

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البيهقي وغيره، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وما عَمِل فيما عَلِم».

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي أيضاً، والبيهقي، وقال الترمذي: حديث غريب من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ.

فلا تزول قدما العبد يوم القيامة عن موقف السؤال، ولا يبرح مكانه حتى يُسأل عن: عمره المقدَّر له فيم أفناه وصرفه: أفي طاعة الله تعالى ورسوله أم في المعصية؟ وفي الخير أم في الشر؟ وهل ربح عمره فشغله في الخير والتقى والبرّ؟ أم خسره فأضاعه في الشر والفساد والبغي؟.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فلقد أقسم الله تعالى بالعصر أي: الدهر المشتمل على عمر كل ذي عُمُرٍ، أقسم بذلك على أَنّ الإنسان لفي خسر ـ أي: إن كل إنسان لفي خسرٍ لعمره الداخل في طيِّ العصر، ولم يخرج من تلك الخسارة لرأس ماله الذي هو عمره، ويربح الربح العظيم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: اعتقدوا وصدّقوا بما يجب الإيمان به، وبرهنوا على صدق إيمانهم بالعمل الصالح، فعملوا الصالحات التي أمر الله تعالى بها.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تناصحوا فيما بينهم، ونهض بعضهم بِهِمَّة الآخر نحو فعل الحق واتباعه، والبعد عن الباطل وإغوائه.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ على عبادة الله تعالى وأوامره.

قال تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية ـ أي: أنت اصطبر على الصلاة، وأمسك نفسك عليها، بأن تُؤديها في أوقاتها، ومطمئناً في أعمالها.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ على ترك المناهي التي نهى الله تعالى عنها، فإنها تحتاج إلى إمساك النفس عنها.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ على البلاء والمحن التي تعتري المؤمنين ـ ونسأل الله تعالى العافية.

فما ربح عمره واستثمره ونال خير عمره وبرَّه إلا الإنسان المتصف بهذه الصفات الأربعة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر ـ فهو قائم بحقوق الله تعالى، وقائم بحقوق خلق الله تعالى.

روى الطبراني بإسناده، عن عبد الله بن حُصين قال: كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر.

وفي هذا تذكير بعضهم لبعض بالنصح والتواصي بالحق، ولذلك قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: لو تدبَّر الناس هذه السورة لوسِعَتْهم.

وهكذا يُسأل عن علمه ما عمل به، والناس في العلم على مراتب، فكلٌّ يُسأل على حسب ما عنده.

وروى البيهقي، عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: (إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر.

فأقول: لبَّيك ربي.

فيقول: ما عَمِلتَ فيما عَلِمْت)؟.

وروى ابن عساكر، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «كيف أنت يا عويمر إذا قيل لك يوم القيامة أعلمتَ أم جهلت؟ فإن قلتَ: علمتُ، قيل لك: فما عَمِلت فيما علمت، وإن قلتَ: جهلتُ، قيل لك: فما كان عُذرك فيما جهلت ألا تَعَلَّمت»!.

ويُسأل الإنسان عن ماله من أين اكتسبه أي: حَصَل عليه وجمعه، أكان ذلك من طريق شرعي وبيع وشراء، وعقود صحيحة، أم من طريق غير شرعي؟ وفيم أنفقه وصَرَفه: هل كان ذلك في

مصرف شرعه الله تعالى أم غير مشروع؛ ولو كان شيئاً قليلاً، فإنَّه يُسأل عنه: هل كان ما أنفقه في طريق شرعي؛ كالإعطاء للفقراء، والمساعدة في الخيرات، والمبرات، أم في سبيل الشهوات والمحرمات والملذات؟

ويُسأل الإنسان عن جسمه فيم أبلاه، فهذا الجسم وما أَوْدع الله تعالى فيه من القُوى فيمَ صرفها وأَتعبها، هل صرف تلك العافية والقوى الجسمية، وتلك الأعضاء البدنية صرفها وأتعبها فيما يُقربه إلى الله تعالى، وينال به سعادة الدنيا والآخرة؟ أم أنَّه صرف ذلك في الشهوات المحرمة، والأهواء النفسية الباطلة، حتى تَعب جسمه، ووهن عظمه، وخارت قواه بسبب فِسْقِهِ وهتكه، وانتهاكه لِمَا حرم الله تعالى عليه.

اللهم استعمل أجسادنا في طاعتك، وأشهِد قلوبنا أنوار تجلياتك، وأجِلْ أفكارنا وعقولنا في آياتك وآلائك ـ آمين.

السؤال عن النعيم

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

إن الله تعالى سوف يسأل الإنسان عن النعيم الذي مرّ عليه في الدنيا، ونَعِم به وتلذَّذ من: صحة البدن، ولذة الشراب، والماء البارد، ولذة المطعم والمأكل، ولذة الظلال الباردة، ومتعة النظر إلى النَّضار والخَضار وغير ذلك.

فيُسأل الكافر عن ذلك سؤال تعنيف وتوبيخ وتحقير ـ لأنه كفر تلك النعم.

ويُسأَل المؤمن عن ذلك سؤال تلطيف وتشريف وتذكير ـ لأنه شكرها.

روى الترمذي وحسنه، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال الزبير: يا رسول الله وأيّ نعيم نُسأل عنه، وإنما هو الأسودان التمر والماء؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما إنه سيكون» ـ يعني: سيكون السؤال عن التمر والماء، وغيرهما من ألوان الأطعمة والأشربة.

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة أن يقال له: أَلَمْ نصحَّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد»؟

وروى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فقال لهما صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة»؟

فقالا: الجوع يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ـ فقوموا».

فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أين فلان»؟

قالت: ذهب يَستعذب لنا الماء ـ إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرمُ أضيافاً مني.

قال: فانطلق فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسْر وتمر وَرُطب، فقال: كلوا، وأخذ المدية ـ أي: السكين ـ ليذبح شاة.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكَ والحلوبَ» أي: لا تذبح شاة حلوباً.

فذبح لهم شاة غير حلوب، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العِذْق وشربوا.

فلما شبعوا وَرَوَوْا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتُسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

وروى ابن أبي حاتم بإسناده، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال: «الأمن والصحة».

وروى أيضاً بإسناده، عن زيد بن أسلم رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يعني: شِبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخَلْق، ولذة النوم.

وفي هذا تنبيه للإنسان إلى الاهتمام بشكر نعم الله تعالى، وأن

يرعى نعم الله تعالى، ويصرفها فيما يُرضيه سبحانه، ويتخذها عوناً له على طاعة ربه، ولا يكفر نعم الله تعالى، ويصرفها في الشهوات المحرمة، وفي المعاصي التي نَهىٰ الله تعالى عنها، فإنَّ ذلك يُعرضها إلى الهلاك والزوال، وسوف يُشدَّد عليه في السؤال عنها.

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإن المعاصي تُزيل النعمْ
وحُطْها بطاعة ربِّ العباد ... فربُّ العباد سريع النقم
وإياك والظلمَ مهما استطعـ ... ـت فظلم العباد شديد الوخم
وسافِرْ بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار مَنْ قد ظَلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهود عليهم ولا تُتَّهم
فكم تركوا من جنان ومن ... قصور وأجرى عليهم أُطُم
صُلُوا بالجحيم وفات النعيم ... وكان الذي نالهم كالحُلُم

السؤال عن بقية الآلاء والنعم المالية وغيرها

إن الله تعالى سوف يسأل العبد يوم القيامة عما أنعم عليه به من أنواع النعم: السمعية والبصرية، والعقلية والبدنية، والصحة والقوة، والمُتَع النفسية، واللذائذ الجسمية، وغير ذلك كما تقدم.

كذلك يُسأل عما خوَّله الله تعالى من الأموال، على مختلف أنواعها.

روى الترمذي، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج[1]..

---

(١) البَذَج: هو أضعف ما يكون من الحملان ـ أي: الصغار من أولاد الضأن.

فيوقف بين يدي الله تعالى.

فيقول الله تعالى له: أعطيتك وخوَّلتك، وأنعمت عليك فماذا صنعتَ؟

فيقول: يا ربِّ جمعتُه، وثمَّرته، وتركته أكثر ما كان ـ فارجعني آتك به.

فيقول الله تعالى: أرني ما قدمت.

فيقول: ربِّ جمعته وثمَّرته، وتركته أكثر ما كان ـ فارجعني آتك به، فإذا عبد لم يقدِّم خيراً، فيُمضى به إلى النار».

كما أنه يَسأله عن نعمة الزواج، والوجاهة بين الناس، وجميع ما خوَّله من النعم والأسباب، والمظاهر والمفاخر.

روى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل نَرَى ربنا يوم القيامة؟

قال: «هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة»؟.

قالوا: لا.

قال: «هل تُضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة»؟

قالوا: لا.

قال: «فوالذي نفسي بيده لا تُضارون في رؤية ربكم إلا كما تُضارون في رؤية أحدهما».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَيلقى العبد ربه فيقول الله تعالى: أي فُلُ ـ أي: يا فلان ـ أَلَمْ أُكرِمْكَ وأسوِّدْك ـ أي: ألم

أجعلك سيداً في أهلك أو قومك ـ وأُزَوِّجْك، وأُسخر لك الخيل والإبل، وأتركك ترأسُ وتربع؟

فيقول العبد: بلى.

فيقول الله تعالى: أظننتَ أنك ملاقيَّ؟ ـ أي: هل كنت في الدنيا تعتقد أنك تلقاني في يومك هذا ـ.

فيقول: ـ أي: العبد الكافر ـ لا.

فيقول سبحانه: فاليوم أنساكَ ـ أي: أتركك في العذاب ـ كما نسيتَني.

ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُلُ ـ أي: يا فلان ـ أَلَم أكرمكَ، وأسوِّدك، وأزوِّجك، وأُسخر لك الخيل والإبل، وأتركك ترأس وتربع؟

فيقول: بلى يا ربِّ.

فيقول ـ أي: الله تعالى ـ: أفظننتَ أنك ملاقيَّ؟

فيقول: لا.

فيقول الله تعالى: فإني أنساك كما نسيتَني.

ثم يلقى الثالث ـ فيقول له مثل ذلك ـ.

فيقول: ـ أي: والقائل منافق ـ يا ربِّ آمنتُ بك، وبكتابك، ورسلك، وصليتُ، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع.

ـ أي: ويدَّعي أنه عمل بما أَمر الله تعالى به، وأدى حقوق تلك النعم، واستعملها في مرضاة الله تعالى؛ ولكنها دعوى كاذبة ـ

فيقول الله تعالى: أهاهنا مَن يشهد لك؟

فيقول: لا.

فيقول سبحانه وتعالى: الآن نبعث عليك شاهدنا.

ويتفكر في نفسه: مَنْ الذي يشهد عليه ـ فيُختم على فِيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي.

فتنطق: فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذَر من نفسه ـ وذلك المنافق الذي سخط الله تعالى عليه».

وفي هذا تنبيه للمسلم إلى أَنْ يهتم بشكر نعمة الله عليه، وأن يرعاها حقوقها، وأَنْ يصرفها في طاعته تعالى ومرضاته، ويتخذها عوناً له على دينه وعبادته وآخرته، ولا يكفر نعم الله تعالى، ولا ينشغل بها عن عبادة الله تعالى، ولا يصرفها في الشهوات المحرَّمة: بأن يتقوّى بها على معصية الله تعالى، فإنه مسؤول عنها وعن حقوقها، وعن شكرها ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ولقد كان سيد الشاكرين، بل سيِّد كل شاكر وشكور، بل الذي نال أعلى وأسمى مقام في الشكر، سيدُنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، يدعو وراء الصلوات المكتوبة، ويُسمع الصحابة تعليماً لهم فيقول:

«اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك لساناً صادقاً، وقلباً سليماً، وأسألك شُكر نِعْمتك، وحُسْنَ عبادتك، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، وأنت علاّم الغيوب» رواه الترمذي.

سؤال الإنسان عن نيته ومراده من الأعمال الصالحة

إنَّ في الآخرة موقفاً يُسأل فيه الإنسان عما نواه وأراده من الأعمال الصالحة المشروعة: هل كان في ذلك العمل مخلصاً لله تعالى، مُبتغياً مرضاة الله تعالى ورضوانه، أم كان مقصوده من ذلك العمل الرياء، أَوْ أَنْ يقال عنه: إنه صالح، أو منفق، أو عابد، أو نحو ذلك؟

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (نزلت هذه الآية في الذين يعملون عمل الآخرة لنيل الدنيا). اهـ.

روى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أول الناس يُقضى يومَ القيامة عليه:

رجل استُشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها.

قال: فما عملتَ فيها؟

قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت.

قال الله له: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: هو جريء، فقد قيل ـ ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها.

قال: فما عَمِلْتَ فيها؟

قال: تعلمتُ العلم، وعلمتُه، وقرأتُ فيك ـ يا ربِّ ـ القرآن.

قال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمتَ ليقال عالِم، وقرأتَ القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل ـ ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِي به فعرَّفه نعمه ـ سبحانه ـ فعرفها.

قال: فما عَمِلتَ فيها؟

قال: ما تركتُ من سبيل تُحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.

قال الله تعالى له: كذبتَ، ولكنكَ أنفقت ليقال هو جواد، فقد قيل ـ ثم أمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار».

قال الحافظ المنذري: رواه مسلم، والنسائي، ورواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في: (صحيحه). اهـ.

* * *

سؤال الواعظين والخطباء
عما أرادوه من وعظهم وخطبهم

روى ابن أبي الدنيا، والبيهقي مرسلاً بإسنادٍ جيد، عن مالك بن دينار، عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من عبدٍ يَخطب خُطبة إلا الله عز وجل سائلُه عنها ـ أظنه قال: ـ ما أراد بها»؟.

قال جعفر: فكان مالك بن دينار رضي الله عنه، إذا حدَّث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع، ثم يقول: تحسَبون أَنَّ عيني تقر بكلامي عليكم، وأنا أعلم أَنّ الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة ما أردتَ به؟.

ولذلك أثنى الله تعالى على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الآية.

فمدحهم سبحانه بالتراحم بينهم، ثم بكثرة أعمالهم وتقرباتهم إلى ربهم بالعبادات: وأهمها وأفضلها الصلاة، فقال سبحانه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يعني: أنهم من كثرة صلواتهم وتنفلاتهم، حيثما نظرتَ إليهم أيها العاقل تراهم ركعاً سجداً.

ولما مدحهم بكثرة عباداتهم؛ مدحهم بالإخلاص في عباداتهم، وذلك أنهم يبتغون بتلك الركعات والسجدات فضلاً من الله

ورضواناً، فلا رياء ولا سمعة ولا كِبْر.

وأما قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ فهذه الآية لا تختلف مع قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾.

لأنَّ يوم القيامة يوم طويل، وفيه مواقف ومواطن متعددة، فيُسألون في مواطن، ولا يُسألون في موطن آخر.

أو: المراد بقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنهم لا يُسألون سؤال استعلام ـ أي: لا يُسألون عن ذنوبهم لتُعلَم من جِهتهم، لأن الله تعالى قد عَلِمَها جميعها، وكتبها الحفظة عليهم، ولكنهم يُسألون: للتوبيخ والتعنيف والزجر.

أو: المراد لا تَسأل الملائكةُ المجرمين عن ذنوبهم، إذ لا حاجة إلى سؤالهم عنها، لأنهم يُعرفون بسيماهم، بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بسواد وجوههم وزُرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: تُجعل أقدامهم مضمومة إلى نواصيهم، ثم يُلقون في النار ـ نعوذ بالله العظيم من ذلك.

* * *